

مشاهدات الرحالة العربي

ابن بطوطة في أرخبيل الملايو (*)

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: الوجود الإسلامي في أرخبيل الملايو :

إندونيسيا وماليزيا أنموذجا (ق ١ - ق ١٠ هـ / ق ٧ - ق ١٦ م) ، لغيثان بن جريس (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م) ، ص ص

الملاحق العامة للكتاب

أولاً : مشاهدات الرحالة العربي

ابن بطوطة في أرخبيل الملايو

ثانياً : فهرس الخرائط

التوضيحية للكتاب .

أولاً: مشاهدات الرحالة العربي ابن بطوطة خلال عامي (٧٤٦ . ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥ . ١٣٤٦ م) في أرخبيل الملايو وبخاصة في عصر دولة سامودرا باساي بسومطرة الشمالية . وأجزاء من شبه الجزيرة الملايوية (ماليزيا الغربية) والتي أطلق عليها ابن بطوطة اسم (مل جاوة) . وفي هذه المشاهدات الكثير من التفاصيل التاريخية والحضارية المبكرة عن نواح بلاد الملايو ومن الصعوبة أن نجد مثلها في المصادر الأولية .

لما شاهد ابن بطوطة بعد خروجه من شبه القارة الهندية ، ومن بلاد البنغال تحديداً ، ووصله في عام (٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م) إلى ديار دولة سامودرا باساي في سومطرة الشمالية، قوله : ((وبعد خمسة وعشرين يوماً ^(١) ، وصلنا إلى جزيرة الجاوة ^(٢) وهي التي ينسب إليها اللبان الجاوي . رأيناها على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة ، وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل ^(٣) والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبة والجمون والنانج الحلو وقصب الكافور . وبيع أهلها وشرأهم بقطع قصدير ، وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك . والكثير من أفوايه الطيب التي بها إنما هو ببلاد الكفار منها ، وأما ببلاد المسلمين فهو أقل بذلك . ولما وصلت المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار ، ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسك . وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار ، فيكافئهم كل إنسان على قدره . وصعد إلينا

(١) تم استغراق هذه المدة في السفر من بلاد البنغال إلى بلاد الجاوة (جزيرة سومطرة) .

(٢) اسم (الجاوة) كان يطلق على جميع الجزر التي تتكون منها اليوم جمهورية إندونيسيا والفلبين . وجاوة الكبرى ، هي التي تعرف اليوم بجاوة . أما جاوة الصغرى فتسمى اليوم سومطرة ، وهي التي قصدها ابن بطوطة في هذه المشاهدات وأيضاً (مل جاوة) أي شبه الجزيرة الملايوية . وهذا ما قصده ابن بطوطة في هذه المشاهدات .

(٣) الفوفل : ثمر نخل ، وهو صلب كأنه عود خشب . وشجرة الفوفل نخلة مثل نخلة النارجيل تحمل منها الفوفل : أمثال التمر : انظر ابن منظور . لسان العرب . مادة (فوفل) .

أيضاً نائب البحر ، وشاهد من معنا من التجار ، وأذن لنا في النزول إلى البر . فنزلنا إلى البندر^(١) وهي قرية كبيرة على ساحل البحر ، بها دور اسمها السرحى ، وبينها وبين البلد أربعة أميال . ثم كتب إلى بَهروز نائب صاحب البحر إلى السلطان ، فعرفه بقدمي . فأمر الأمير دَوْلَسَة بلقاني والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الأصبهاني وسواهم من الفقهاء ، فخرجوا لذلك ، وجاءوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه ، فركبت وركب أصحابي .

ودخلنا إلى حضرة السلطان وهي مدينة سُمَطْرَة ، مدينة حسنة كبيرة ، عليها سور خشب وأبراج خشب . (و سلطان الجاوة) هو السلطان الملك الظاهر ، من فضلاء الملوك وكرمائهم ، شافعي المذهب ، محب في الفقهاء ، يجلسون مجلسه للقراءة والمذاكرة . وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع ، يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه . وأهل بلاده شافعية محبوبون في الجهاد ، يخرجون معه تطوعاً ، وهم غالبون على من يليهم من الكفار ، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح .

ولما قصدنا دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحاً مركوزة على جانبي الطريق ، وهي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكباً . فنزلنا عندها ودخلنا المشور^(٢) ، فوجدنا نائب السلطان وهو يسمى عمدة الملك .. فقام إلينا وسلم علينا ، وسلامهم بالمصافحة ، وقعدنا معه . وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان ، فاتاه الجواب على ظهرها . ثم جاء أحد ببقشة ، والبقشة هي السينية^(٣) . فاخذها النائب بيده ، وأخذ بيدي وأدخلني إلى دويرة^(٤) يسمونها فردخانة ، وهي موضع راحته بالنهار . فإن العادة أن يأتي نائب السلطان إلى المشور بعد الصبح ، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة ، وكذلك الوزراء والأمراء الكبار . وأخرج من البقشة ثلاث فوط ، إحداها من خالص الحرير ، والأخرى حرير وقطن والأخرى حرير وكتان . وأخرج ثلاثة أثواب يسمونها التحتانيات من جنس الفوط . وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس تسمى الوسطانيات . وأخرج ثلاثة أثواب من الأرمك ، أحدها أبيض . وأخرج ثلاث عمائم . فلبست فوطة منها عوضاً عن السراويل على عاداتهم وثوباً من كل جنس ، وأخذ

(١) البندر : هي المدينة الساحلية ، وأحياناً يطلق عليها الميناء البحري التجاري .

(٢) المشور : المقصود به فناء القصر أو المترل .

(٣) السينية : نوع من المناديل يوضع على الرأس .

(٤) الدويرة : بيت صغير ، وربما تكون فقط غرفة واحدة .

أصحابي ما بقي منها . ثم جاءوا بالطعام أكثره الأرز، ثم أتوا بنوع من الفقاع ^(١) ، ثم أتوا بالتنبول ^(٢) وهو علامة الانصراف . فاخذناه وقمنا ، وقام النائب لقيامنا ، وخرجنا عن المشور . فركبنا وركب النائب معنا ، وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب ، وفي وسطه دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمونها الخملات ومنها مصبوغ وغير مصبوغ . وفي البيت أسرة من الخيزران ، فوقها مضربات ^(٣) من الحرير ولحف خفاف ومعاد يسمونها البوالشت .

فجلسنا بالدار ومعنا النائب ، ثم جاء الأمير دولسه بجاريتين وخادمين، وقال لي : يقول السلطان : هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد . ثم خرج النائب وبقي الأمير دولسه عندي ، وكانت بيني وبينه معرفة لأنه كان ورد رسولاً على السلطان بدھلي ، فقلت له : متى تكون رؤية السلطان؟ ، فقال لي : إن العادة عندنا أن لا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاث ، ليذهب عنه تعب السفر ويثوب إليه ذهنه . فاقمنا ثلاثة أيام يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم ، وتأتينا الفواكه والطرف مساءً وصباحاً . فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة ، أتاني الأمير دولسه فقال لي : يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة .

فاتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران ، ثم دخلت إلى السلطان . فوجدت القاضي أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله ، فصافحني وسلمت عليه وأجلسني عن يساره ، وسألني عن السلطان محمد وعن أسفاري ، فأجبته . وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ولم يزل كذلك إلى العصر فلما صلاها دخل بيتاً ^(٤) هنالك فنزع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء وبها يأتي الجامع يوم الجمعة ماشياً ثم لبس ثياب الملك وهي الأقبية من الحرير والقطن . ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والنخيل على بابه . والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه النخيل . وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ، ويكون أهل العلم عن يمينه . فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا النخيل ، وسرنا معه إلى المشور . فنزلنا حيث العادة ، ودخل

(١) الفقاع : شراب يتخذ من الشعير سمي به .

(٢) التنبول : لم أجد المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وربما كانت نوع من أنواع المأكولات أو المشروبات أو الروائح الزكية .

(٣) المضربات : نوع من الأثاث الخاص بالمرل .

(٤) المقصود بالبيت هنا : أي غرفة .

السلطان راكباً ، وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفاً . فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ، ووزراؤه أربعة ، فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم . ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف العلماء والحكماء والشعراء ، ثم صف وجوه العسكر ، ثم صف الفتيان والماليك ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس ، وجعل عن يمينه خمسون فيلاً مزينة وعن شماله مثلها ، وعن يمينه أيضاً مائة فرس وعن شماله مثلها وهي خيل النوبة . ووقف بين يديه خواص الحجاب ، ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه ، وأتى بخيل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب وأرسان حريز مزركشة ، فرقصت الخيل بين يديه ، فعجبت من شأنها وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره وانصرف الناس إلى منازلهم .

وكان له ابن أخ متزوج ببنته فولاه بعض البلاد ، وكان الفتى يتعشق بنتاً لبعض الأمراء ويريد تزوجها . والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح ، فلا بد أن يستامر السلطان في شأنها ، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها ، فإن أعجبت صفتها تزوجها وإلا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاءون . والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم ، لما يحوزون به من الجاه والشرف ، ولما استامر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان ، بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها . واشتد شغف الفتى بها ولم يجد سبيلاً إليها ثم إن السلطان خرج إلى الغزو ، وبينه وبين الكفار مسيرة شهر ، فخالفه ابن أخيه إلى سمطرة ودخلها ، إذ لم يكن عليها سور حينئذٍ وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون . وعلم عمه بذلك فقتل عائداً إليها ، فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر وأخذ الجارية التي تعشقها ، وقصد بلاد الكفار بمل جاوة^(١) ، ولهذا بنى عمه السور على سمطرة . وكانت إقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوماً . ثم طلبت منه السفر إذا كان أوانه ، إذ لا يتهيأ السفر إلى

(١) مل جاوة : هي شبه الجزيرة الملايوية (ماليزيا الغربية) ، وحتى هذا الوقت أثناء زيارة ابن بطوطة ، لم يكن أهل البلاد الأرخييل قد دخلوا الإسلام ، وكان أول سلاطينها المسلمين في مملكة ملقا هو : السلطان محمد شاه (باراميسوار ا قبل الإسلام) .

الصين في كل وقت . فجهز لنا جنكاً^(١) وزودنا . وأحسن وأجمل جزاه الله خيراً . وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنك . وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة)) .
وعند خروج ابن بطوطة من سومطرة الشمالية متجهاً إلى الصين كان عليه أن يمر على بلاد شبه الجزيرة الملايوية (ماليزيا الغربية) والتي يذكر اسمها عند مروره بما بـ (مُل جاوة) ، ومعظم سكانها آنذاك لازالوا على ملة الكفر ، وقد وصفها بقوله ((ثم وصلنا إلى مُل جاوة وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين . وبها الأفاوية العطرة والعود الطيب القافلي والقماري ، وقافلة^(٢) وقمارة^(٣) من بعض بلادها . وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي ، وإنما معظم ذلك بمل جاوة .

ونذكر ما شاهدناه منها ، ووقفنا على أعيانه وحققناه . وشجرة اللبان صغيرة ، تكون بقدرقامة الإنسان إلى ما دون ذلك . وأغصانها كأغصان الخرشف ، وأوراقها صفاررقاق ، وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة ، واللبان صمغية تكون في أغصانها . وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار . وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنايب منها أطول وأغلظ ويكون الكافور داخل الأنايب . فإذا كسرت القصبه وجد في داخل الأنايب مثل شكله من الكافور . والسر العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان ، وإلا لم يتكون شيء منه . والطيب المتناهي في البرودة ، الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح ، وهو المسمى عندهم بالحدالة ، هو الذي يذبح عند قصبه الأدمي ، ويقوم مقام الأدمي في ذلك الفيلة الصفار . وأما العود الهندي فشبهه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له . وشجرته لا تعظم كل العظم ، وعروقه طويلة ممتدة ،

(١) الجنك : نوع من أنواع السفن التجارية .

(٢) ربما إنها مدينة (ملقا ، وأما إحدى المدن الشرقية لشبه جزيرة الملايو مثل : باهانج ، أو تير ينجانو ، أو كيلانتان . انظر الخرائط رقم (٥ ، ١١) في نهاية هذا الكتاب .

(٣) قمارة : تقع هذه المدينة في محيط الهند الصينية وعلى وجه التحديد فيما يعرف اليوم باسم (كمبوديا) . انظر الخرائطين رقم (١ ، ٣) في نهاية هذا الكتاب .

وفيهما الرائحة العطرة . وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها . وكل ما ببلاد الإسلام من شجرة فهو متملك ، وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك منه ما كان بقافلة وهو أطيب أنواع العود ، ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب ، ومن القماري صنف يطبخ عليه كالشمع . وأما العطاس فإنه يقطع العرق منه ، ويدفن في التراب أشهراً فتبقى فيه قوته ، وهو من أعجب أنواعه . وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة ، وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام ، وليست بتملكة لكثرتها ، والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان . والذي يسميه أهل بلادنا نوار^(١) . القرنفل هو الذي يسقط من زهرة ، وهو شبيه بزهر النارج . وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب ، والزهر المتكون فيها هو البساسة . رأيت ذلك كله وشاهدته . ووصلنا إلى مرسى قافلة ، فوجدنا به جملة من الجنوك معد للسرقة ولئن يستعصي عليهم من الجنوك ، فإن لهم على كل جنك وظيفه . ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قافلة ، وهي مدينة حسنة ، عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة . وأول ما رأيت بخارجها الأفيلة عليها الأحمال من العود الهندي يوقدونه في بيوتهم ، وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمناً . هذا إذا ابتاعوا فيما بينهم ، وأما التجار فيبيعونه الحمل منه يثوب من ثياب القطن ، وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير . والفيلة بها كثيرة جداً ، عليها يركبون ويحملون . وكل إنسان يربط فيلته على بابه ، وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده ، يركبه إلى داره ، وكذلك جميع أهل الصين على مثل هذا الترتيب . و (سلطان مل جاوة) كافر ، رأيتُه خارج قصره جالساً على قبة ، ليس بينه وبين الأرض بساط ، ومعه أرباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هناك إلا عند السلطان ، وإنما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون . فعرف شاني فاستدعاني ، فجنت وقلت : السلام على من اتبع الهدى ، فلم يفقهوا إلا لفظ السلام فرحب بي ، وأمر أن يفرش لي ثوب أقعد عليه فقلت للترجمان كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض ؟ . فقال : هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعاً ، وأنت ضيف وجنت من عند سلطان كبير فيجب إكرامك ، فجلست ، وسألني عن السلطان ، فأوجز في سؤاله وقال لي : تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام ، وحينئذ يكون انصرافك .

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المُسَفَّر قد وضعه على رقبة نفسه . وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ، ثم أمسك السكين بيديه معاً وقطع عنق نفسه . فوقع رأسه

(١) النوار : أي الزهر .

لحدة السكين وشدة إمساكه بالأرض ، فعجبت من شأنه . وقال لي السلطان : أيفعل أحد هذا عندكم ؟ فقلت له : ما رأيت هذا قط . فضحك وقال هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا . وأمر به فرفع وأحرق ، وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا ، وأجري الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه وعظموه لأجل فعله . وأخبرني من كان حاضراً في ذلك المجلس ، أن الكلام الذي تكلم به كان تقريراً لمحبته في السلطان ، وأنه يقتل نفسه في حبه كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه وجدته نفسه في حب جده . ثم انصرفت عن المجلس ، وبعث إليّ بضيافة (ثلاثة أيام) .

وفي عام (٧٤٧هـ / ١٣٤٦م) عاد ابن بطوطة من بلاد الصين إلى ديار الجاوة (سومطرة) ، وكان له أيضاً مشاهدات وانطباعات لم ترد في انطباعاته السابقة ، فقال : ((وبعد شهرين ... وصلنا الجاوة ^(١) . ونزلنا إلى سومطرة . فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزوة له ، وجاء بسبي كثير . فبعث لي جاريتين وغلامين ، وأنزلني على العادة ، وحضرت إعراس ولده مع بنت أخيه . وشاهدت يوم الجلوة ، فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبراً كبيراً وكسوة بثياب الحرير . وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ، ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها ، من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه ، وكلهن باديات الوجه ينظر اليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع ، وليست تلك بعادة لهن إلا في الأعراس خاصة . وصعدت العروس المنبر ، وبين يديها أهل الطرب رجالاً ونساءً يلعبون ويفنون . ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيهة البوجة ، والتاج على رأس العروس المذكور ، وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء ، وقد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤوسهم الشواشي ^(٢) المرصعة ، وهم أترباب العروس ليس فيهم ذو لحية . ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله ، وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك . ونزل

(١) يقصد بعد شهرين تم استغراقهما أثناء سفره من الصين إلى بلاد الجاوة (سومطرة) . والمقصود بالشهرين هنا : أي المدة الزمنية التي استغرقها ابن بطوطة في السفر من الصين إلى بلاد الجاوة (سومطرة)

(٢) الشواشي : نوع من أنواع الألبسة الغالية والمرصعة بالذهب .

ابنه فقبل رجله ، وصعد المنبر إلى العروس ، فقامت إليه وقبلت يده ، وجلس إلى جانبها والخواتين يروحون عليها . وجاءوا بالفوفل والتنبول ، فأخذه الزوج بيده وجعل منه في فمها . ثم أخذت هي بيديها وجعلت في فمه . ثم أخذ الزوج بضمه ورقة تنبول وجعلها في فمها . وذلك كله على أعين الناس ، ثم فعلت هي كفعله . ثم وضع عليها الستر ، ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر ، وأكل الناس وانصرفوا . ثم لما كان من الغد جمع الناس ، وأجرى له أبوه ولاية العهد ، وباعه الناس ، وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب . وأقامت بهذه الجزيرة شهرين ، ثم ركبت في بعض الجنوك . وأعطاني السلطان كثيراً من العود والكافور والقرنفل والصندل .))